

جوج سالك

في الطريق الى الصحراء

استيقظ من مبكرا على غير عادته ، فنهض من فراشه وخبوط الفجر الاولى لم تكن قد ظهرت بعد ، ثم ارتدى ثياب السفر ، والقى نظرة على غرفته بعد ان سوى فراشه ولحافه . ومال الى حقائبه الثلاث التي كان قد هيأها مساء البارحة ، فوضع واحدة على ظهره ، وامسك واحدة بكل من يديه ، واطفاً انوار المنزل كلها بعد انلقى نظرة اخيرة على الابواب والنوافذ ، واغلق باب الدار اغلاقاً محكماً ، وهبط درجات سلم البناية العالية التي يقيم فيها .

سار طويلا في شوارع البلدة شبه المقفرة ، اذ كان الناس ما يزالون نياما في تلك الساعة . وكان يلتقي بين الفينة والفينة ، في كل شارع ، بالحارس الليلي ، وكان بعض الحراس إما التقوا به يهزون رؤوسهم ويقولون :

« مسافر ، لا شك انه مسافر » .

ولم يكن من ليوليهام اي انتباه ، وظل يغد السير حتى بلغ مدخل البلدة الشرقي ، فتوقف قليلا يستريح ووضعه حقائبه على الارض واقتعد حجرة كبيرة وراح ينظر الى الافق . كانت الشمس قد بدأت تشرق ، فرأى ان هذا الصباح لا يختلف في شيء عن سائر الاصباح . وبعد هنيهة نهض وهو يقول في نفسه :

« يجب الا اضيع الوقت ، فالمسافة طويلة » .

وتابع مسيره . وقبل ان تغيب البلدة الصغيرة عن نظره ، التفت التفتاة اخيرة فلم توج له البلدة الغافية في احضان السهل باية عاطفة ، فمضى يمتاز الحقول المحيطة بالبلدة وسار طويلا حتى اختفت البلدة عن بصره نهائيا .

والواقع ان حقائبه الثلاث لم تكن تتسع لكل ما كان يريد ان يأخذه معه . فرأى نفسه مضطرا لان يترك كثيرا من اشائه في المنزل ، واقتصر على ما رآه ضروريا له . ولا شك ان اختيار الاشياء وجمعها وترتيبها في الحقائب قد استغرق منه وقتا طويلا ، فلقد وضع في احدى الحقائب بعض ثيابه النظيفة ، ومعطفا وثوبا جديدا ؛ ووضع في الحقيبة الثانية ادوات الحلاقة والزينة ، وبعض الخبز والطعام ؛ كان يحمل هاتين الحقيبتين بيديه ،

الحقيقية الثالثة التي حملها على ظهره فقد وضع فيها ام ما يحتاج اليه من كتب كان يحبها
 ولا يفتنميد قراءتها ، كما وضع فيها ايضا اوراقه الخاصة وشهاداته ودفتر مذكراته وكراسات
 من الورق الابيض قدر انه قد يحتاج اليها للتدوين ما يخطر له . كل هذا بالاضافة الى اضمامة
 التثقل على صوره مذ كان صغيرا حتى بلغ هذه السن ، وكان في هذه الاضمامة ايضا صور
 من اوراقه واقاربه ، وقد الصقت فيها على نحو جميل ، ضمن اطر صغيرة ملونة . والحق انه
 كان يحرص على هذه الاضمامة حرصا شديدا : ففيها اجمل ذكرياته ، وصور احب الناس
 الى نفسه .

في راحة قبيل الظهر ، احس س . بالجوع . فتوقف عن السير ، وجلس في فيء شجرة كبيرة
 منعط الحقول التي كان يجتازها ، ثم فتح حقيبته واخرج منها بعض الشطائر واكلها ، ثم
 اشرب من ساقية كانت تسيل رقراقة المياه بالقرب من الاشجار الباسقة . كان يشعر بالتعب
 وود لو ينام قليلا . كانت بحاجة ماسة الى قليل من النوم ، فقد تقلب كثيرا على فراشه ليلة
 البارحة قبل ان يوافيه النوم ، ولكنه آثر ان يتابع السير الآن ، على ان ينام في احد
 تلك الحقول عند مغيب الشمس ، وبذلك يكون قد قطع مسافة اكبر . فليس في نيته ان يسير
 طويلا . وخطر له ان يترك احدي الحقيبتين ، ولكنه تردد طويلا في ذلك . لقد رأى انه
 ليس بحاجة الى هذه الحقيبة الكبيرة التي هدت ذراعه ، فما الفائدة من الثياب التي فيها ،
 وهل سيتاح له ان يرتدي هذا المطف وذاك الثوب الجديد ؟ واقام فترة يحول بين نفسه
 وهذه الرغبة التي ابدتها في اطراح الحقيبة ، ثم لم يلبث ان اذعن لها ، فحسبه هذه
 الحقيبة التي تحتوي على الطعام وتلك التي تحتوي على الفكر والعلم . وقال في نفسه :

« ان ثوبا واحدا يكفيني ، وليس يحتاج الكائن الحي الى كل هذه الثياب » .

وهكذا ترك الحقيقية ، آخر الامر ، في ظل الشجرة حيث كان يجلس ، وقام يتابع
 ملاحظته . واحس ، حقا ، بانه تحرر من عبء ثقل ، وراح وقد غدا اخف حملا يطوي
 ولطقول بسرعة اكبر . وكان ينقل الحقيقية الثانية من يد الى اخرى عندما يشعر بثقل حملها .

حين غابت الشمس ، كان س . ما يزال يغذ السير . فقرر ان يتوقف كما بيت من قبل .
 ولكنه بعد ان تناول قطعة من الخبز كان زاهدا في اقامها ، رأى من الافضل ان يتابع
 السير ، كأن ثمة سوطا يلهب ظهره . ومع انه كان في اشد الحاجة الى الراحة ، الا انه قام
 بعد هنيهة يتابع سيره . كانت يده التي حمل بها الحقيقية وقتا طويلا تؤله ، فتمنى لو ترك الحقيقية
 فبحث اقام لكي يأخذها في عودته ، ولكنه فكر ان فيها الطعام وادوات الحلاقة والزينة .
 فبحث في سره : اية حاجة له بالطعام والشراب ؟ فهو يستطيع غدا حين يصل ان

يستغني عنها . اجل ، اما ادوات الزينة ... وضحك ملء فمه : كيف لم يفتن الى ذلك ،
وفيم تحمل عناء حمل هذه التوافه ؟ فلتطل لحيته ما شئت ان تطول ، اي خير في هذا ؟
سيكسبه ذلك هبة ووقارا .

وترك الحقبة الثانية على قارعة الطريق . قال في نفسه : « ان الناس سيعثرون عليها
وسيفرحون لهذا الغنم . فهم يحبون المغنم ، وكل غنائمهم من هذا القبيل . اما انا فلم اعد
بحاجة اليها البتة » .

كان بدر صغير ينير شعاب الطريق ، وينعكس على اوراق الاشجار التي تتراقص في
ضوئه . واعجب بهذا المشهد الجميل ، الا انه لم يشأ ان يتوقف طويلا ليلمع به . كان على
عجل من الوصول الى الصحراء التي نادته قبل حين فاستجاب لندائها . صحيح انها نادته
منذ ابعد الازمان . منذ ان وعى نفسه . ولكنه ظل يؤخر الاستجابة لندائها حتى لم
يعد يستطيع دفعا لهذا النداء .

اضحى مسيره الآن خفيفا ، وقد تحررت يدها كلتاها . وانطلق بنشاط ورشاقة
وراح يوسع الخطى . الا ان الحقبة التي حملها على ظهره كانت تؤله بعض الالم ، غير انه
كان على هذه الحقبة حريصا ، فهو يرض بها ان تضيق وتفقد . ففيها اعرق ما جمع من
تجارب ، وفيها شهاداته التي قضى سنوات طويلة كي يحصل عليها . ولكنه وجد ، عند
منبلج الصباح ، انها تحني ظهره وتؤله . وفكر فيها مليا . اية فائدة من هذا العلم كله ؟
وهل يعادل متعة الصحراء التي تنتظره فيها ايام جميلة عذبة ؟ ثم ألم يع هذا العلم في صدره ؟
ذكرياته ؟ انها محفورة في اعماق نفسه . وما كان للقرطاس ان يحتفظ بها كما احتفظ هو
بها . واحس بغصة مؤلمة وهو يحل سيور الحقبة التي شدها بها الى ظهره . ثم وضعها على
الارض وهو يعلل نفسه بان من سيعثر على هذه الحقبة بما فيها من كتب ثمينة وذكريات
حزينة ووثائق هامة سيقدر صاحبها تقديرا كبيرا . ولكنه هز رأسه مستكبرا ، فلم تقع
هذه الفكرة من نفسه موقعا حسنا . فهو يعلم ان الناس لم يقدروها حق قدرها وهو معهم ،
فما الفائدة من تقديرهم بعد ابتعاد صاحبها وغيابه ؟ ثم اية فائدة من تقدير الناس هذا الذي
ظل محروما منه ؟ انه لم يجن سعادة ولم يشعر بفرح قط ولم يتعلم الا شيئا واحدا وهو
ان الكل باطل . ومن يدري ، فربما كان ما يبحث عنه متوفرا في الصحراء التي يقصد ، فليرم
بها . لقد كانت عبئا اكثر منها خيرا وقيدا اكثر منها حرية . ومضى في طريقه لا يأبه بشيء .
كل ما يشعر به الآن هو الظلم . وكان هذا الظلم يلح عليه الحاحا شديدا . أترأه يعثر
على نبع يروي منه ظمأه ؟ ولاحت له من بعيد ينابيع عديدة ، فأمتها سريعا ، وغب منها

تعل استطلاع ، جرعات كبيرة عديدة . ورأى ان يمسح عرقه الغريز الذي تصبب منه دون
باله يشعر به ، فغسل وجهه مرارا وغسل جبهته ورأسه ويديه ورجليه ، فاستشعر شيئا
من النشاط . ولكنه لاحظ في الوقت نفسه امرًا غريبًا . أكان من فعل هذا النبع السحري ؟
ذلك بانه لم يعد يذكر اي شيء على الإطلاق ولم يعد قادرا على التذكر ، فقد غامت
البنيا في عينيه ، ولم يبق في ذهنه الا شيء واحد ، هو الصحراء . اما من اين جاء ،
توماذا فعل بالامس وقبل الامس ، واين وكيف قضى ايامه ، واين اهله وذووه ، ومن هم ؟
فقد غامت هذه الامور كلها في عينيه ، ولم يعد يرى امامه الا الصحراء التي ينتظرها
وتنتظره منذ امد بعيد موغل في البعد .

مضى س . لا يلوي على شيء . كان نداء الصحراء قد بلغ الآن حدا عنيقا قويا ، فلم
يعد قادرا بعد على التوقف . ومع انه كان يشعر بحاجة الى كثير من الراحة بيد انه كان
على ثقة بان الراحة آتية لا ريب فيها ، وها هي ذي الصحراء تلوح له من بعيد . ورغم
انه كان يعلم انه لم يبلغها بعد الا انها بدت له قريبة قريبة ، حتى لكأنها تحيط به . ومع
ذلك فقد كان عليه ان يسير ويسير . ثمة شيء واحد يضايقه وليس يدري كيف السبيل
الى الخلاص منه . كانت ثيابه رغم قلتها وخفة وزنها تنوء عليه . وقدر س . انه ان نزع حزامه
الجلدي وحذاه فسيكون اقدر على السير والحركة . وعمد فعلا الى حزامه ففكه ، والى
حذاه وجواربه فخلعها والقى بها الى الارض . وما ان سار بضع خطوات حتى عاوده
الشعور بالضيق ، حتى لكأن الثياب تكاد تخنقه . فراح يخلع سترته وقميصه وينظفونه ،
ورماها غير آسف عليها اذ كادت في الحق ان تخنقه .

انطلق س . يركض ميمًا قلب الصحراء ، بعد ان تخلص من كل اعبائه بخفة الفراش
او النسيم . لقد احس بانه اضحى قادرا على الطيران بعد ان تقطعت حبال متينة لم يكن
يراهما ولكنها كانت تشده الى الارض شدا قويا متواصلا . واخذ يجري في ارض منبسطة
لا حدود لها ، والتفت خلفه فلم ير شيئا . لقد اختفت كل المعالم التي مر بها . كانت رجلاه
الحافيتان تطآن ارضا رملية . فقال في نفسه :

« لقد وصلت الى الصحراء . لا شك انني وصلت ! »

وراح يلاحظ آثار اقدامه على الرمال ، فاعجبه منظرها . ولكنه فوجيء بالرياح
تسفع سطح الصحراء فتغطي مواطئ اقدامه . وآلمه فعل الرياح وحز في نفسه غياب آثاره ،
فراح يسير متمعداً رؤية آثار قدميه ثم يتوقف حزينا ليرقب اختفاءها . ولاح له من بعيد
نور ابيض يمتد على مدى الافق ، ورأى الماء الذي كان ظمآن له ، فحث خطاه نحوه ، ولكنه

لم يستطع ان يبلغه ، ومضى يبذل محاولة اثر محاولة للوصول اليه . ولكنه في كل مرة كان يبوء بالخيبة . وتساءل في نفسه : « ما هذا ؟ » وقد رانه اذا تابع السير للوصول اليه فسيقضي آلاف السنين دون الوصول الى ذلك . وانبعثت عنه تنهدة اشبه شيء بالحشرجة :
« يا الهي ! »

وسيطر عليه الخوف والفرع ، فتسمر في مكانه يحمق في لا شيء . كانت كثنان صغيرة دقيقة من الرمال تنبسط في كل مكان حوله ، ومزيج من الخطوط المستقيمة والمتعرجة تملأ ساحة البصر امامه . اخذ العرق يتصبب منه ويسيل بغزارة على الرمال المتعطشة ، وكان عرقه احمر قانياً كأنه الدم .

ربت يد مجهولة على كتفه وهتفت به :
« لا تفرع » .

وسأل دون ان يقصد احدا بالسؤال :
« هل وصلت ؟ »

لم يجبه احد . اذ ذاك وضع يديه امام فمه على هيئة بوق واعاد السؤال بمزيد من القوة حتى بدا كأنه يصرخ :
« هل وصلت ؟ »

فاجابه الصدى بعد هنية يكرر ما قاله :
« وصلت » .

احس باليد الصغيرة تربت على كتفه مرة ثانية وتهمس في اذنه بصوت عذب موسيقي النبرة :

« عليك الآن ان تخلع ثيابك » .

« ولكنني خلعتها » .

« اخلع الباقي منها » .

وتلفت س . حوله في خجل ، ولكنه لم يجد احدا ينظر اليه .

« لاتخجل ، انزع ثيابك وارميها » .

وامتلل للامر بسرعة ، ثم تساءل في دهشة :

« كيف انا الآن ؟ »

اجابه صوت خفي انبعث هذه المرة من اعماقه :

« كما ولدتك امك » .

عادت اليد تربت على كتفه بهدوء :

« اخلع ساعتك . لماذا تحتفظ بها ؟ »

« ساعرف بها الزمان . »

« اخلعها ، فلن يكون هناك زمان . »

خلع س . ساعتها وطرحها بعيدا .

« عليك الآن ان تصير حبة رمل . »

ففغرفاه مدهوشا وقال :

« حبة رمل ؟ وكيف ذلك ؟ »

لم يجبه احد على هذا السؤال . قيل له في لهجة أمرة :

« اضطجع على الارض وتمدد بين اخوانك حبات الرمل الكثيرة . »

فصرخ محتج :

« حبات الرمل اخواني ؟ »

« نعم ، نعم ، ستصير حبة رمل مثلهم . »

قال مستغربا :

« ولكنني كبير كبير ، كيف يمكن ان اغدو حبة رمل واحدة صغيرة لا تكاد ترى ؟ »

لم يسمع جوابا على سؤاله . فأضاف في شبه امسى :

« أهذه هي النهاية اذا ؟ »

ولما لم يجبه احد ، امثال للامر واضطجع على الارض . وخطر له سؤال اخير :

« كم يستغرق ذلك ؟ »

فهمس صوت في اذنه يقول في منتهى الرقة والهدوء :

« لن يستغرق ذلك الا بضعة ايام من ايام الرب . »

واغفى س .